Lena Meari

**Reading Che in Colonized Palestine**

**قراءة تشي في فلسطين المستعمرة**

**لينا ميري**

لقدنقلتنيقراءةهذهالنصوصمنالواقعالسياسيللأيامالحاليةإلىمكانسياسيآخريتمتعبمنطقمتماسكوعواطفوقوةوأمل*“.*

*”*فتحتهذهالنصوصلناأفقاًسياسياًجديداً،شكلانحرافاًراديكالياًعنقيودالخطابوالممارسةالسياسيةالرسميةالحاليةالفلسطينية*“.*

إن الاقتباسين السابقين مأخوذان من أوراق دراسية لطالبين فلسطينيين في جامعة بيرزيت في صف في الأنثروبولوجيا حول الحركات الثورية قمت بالإشراف عليه في العام الدراسي ٢٠١٦- ٢٠١٧. كان الصف يشمل أيضاً دراسة الحركات الثورية في أميركا اللاتينية ونصوصاً حول النظريات الثورية وشهادت الثوار من آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وكما توحي الاقتباسات، كان التأثير التراكمي لقراءة ومناقشة النصوص الثورية من قارات ثلاث تجربة فريدة لطلابي ولي.

وبتركيزنا على نصوص نظرية وشهادات ثورية خلقنا جواً لمناقشة الأشكال التحررية للسياسة بمفاهيم واحتمالات راديكالية. وكان أحد النصوص المقررة في الوحدة المتعلقة بأميركا اللاتينية هي شهادة تشي غيفارا حول الثورة الكوبية. ورغم أن معظم الطلاب يعرفون غيفارا من خلال الانتشار الواسع لصوره على القمصان وميداليات المفاتيح والجدران لم يكن معظم الطلاب يعرفون تفاصيل ممارسته الثورية. إن حقيقة أن معظم الطلاب كانوا يعرفون البعد الأسطوري لصورة تشي لكنهم لا يعرفون أي شيء عن جوهره الثورية قالت الكثير عن كيف أن ذكراه وذكرى ثوريين آخرين تسطحت وتحولت إلى إشارات فارغة.

كانت قراءة الشهادات الثورية الأميركية اللاتينية حول الأحداث التفصيلية للثورة الكوبية (العراقيل والزمالة والتضحيات والانتصار الجماعي) مفتحة لعين لكثير من الطلاب. وحرر الاطلاع على هذه النصوص الثورية بطريقة ما الخيال السياسي للقراء من قيود المنطق الليبرالي الفردي الحالي، وفتح أفقاً سياسياً جديداً اتسم بمنطق مختلف وعواطف وأمل جماعي.

وُلد المشاركون في الصف في حقبة ما بعد أوسلو التي اتسمت بتحول الصراع الفلسطيني من صراع ثوري قومي تحرري إلى مشروع لبناء الدولة مقيد بمنطق ليبرالي إداري قانوني وعقلانية اقتصادية نيوليبرالية وسياسية (انظر مقالة طارق دانا في هذا العدد). داخل هذا المشروع، قامت السلطة الفلسطينية (الذراع السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي تشكلت في ١٩٩٤ بعد اتفاقيات أوسلو) بتحويل السياسة الفلسطينية من سياسة جماهيرية ثورية تحدت بنى السلطة الاستعمارية المحلية والإقليمية والعالمية، إلى سياسة تهدف إلى الاعتراف الدولي بدولة فلسطينية داخل قيود بنى السلطة الجيوبوليتيكية الاستعمارية نفسها.

ولم تكن الممارسة السياسية الفلسطينية بعد أوسلو في الضفة الغربية قادرة على مواجهة الهجمة الاستيطانية الصهيونية العنيفة المتواصلة. (تشير هذه المقالة إلى تجربة الضفة الغربية مع السلطة الفلسطينية، وليس التطورات في غزة تحت حكم حماس)، وأدى هذا النوع من السياسة إلى نفور كثير من الفلسطينيين بما فيه الشباب الفلسطينيين الذين أدركوا أن هذا نوع من التواطؤ مع المشروع الاستعماري للمستوطن الصهيوني المدعوم من القوى الكبرى في العالم.

في هذا السياق، شكلت قراءة النصوص الثورية بديلاً راديكالياً للأطر والممارسات السياسية الليبرالية المهيمنة، وزودت بعض الطلاب بأطر مرجعية ومفاهيم ومصطلحات للتعبير عن فهمهم للوقائع المعاصرة خارجها. وبالنسبة لطلاب آخرين، ولدت قراءة هذه النصوص فهماً للصراع الفلسطيني كصراع مشترك مع الصراعات المضادة للاستعمار والإمبريالية من أجل تحرير الشعب الفسطيني وشعوب أميركا اللاتينية وتطبيق العدالة.

كانت قلة من طلاب الصف تعرف أن النصوص الثورية الأميركية اللاتينية انتشرت بشكل واسع بين الفلسطينيين من أواخر الستينيات إلى الثمانينيات، ليس فقط في خلفيات أكاديمية بل أيضاً بين ناشطي منظمة التحرير الفلسطينية، خصوصاً أولئك المرتبطين بمنظمات يسارية وداخل جدران السجون. فضلاً عن ذلك، لم يكن معظم الطلاب واعين للصلات الفلسطينية الأميركية اللاتينية التي تجاوزت انتشار النصوص وتضمنت مرور الثوريين بين الحركات الأميركية اللاتينية والفلسطينية.

أثارت تجربتي في تدريس الصف الاستقصاء في تاريخ انتشار النصوص الثورية الأميركية اللاتينية في فلسطين، وموقعها وعلاقتها بالسياسة الفلسطينية، واحتمال أن تثير خيالاً سياسياً فلسطينياً ثورياً وممارسة. وهدف هذا الاستقصاء إلى تنوير الخيال السياسي الفلسطيني الحالي وإعادة فتح أفق للصراع التحرري الثوري الفلسطيني.

رفاق في حرب التحرير: مرور الثوريين

*”*إنالقضيةالفلسطينيةليستقضيةللفلسطينيينفقط،بلقضيةلكلثوري،أينماكان،قضيةللجماهيرالمُستغَلَةوالمضطهدةفيمنطقتنا*“.-* غسانكنفاني*.*

*”*إنحركةالتحررالفلسطينيةهيحركةقوميةتقدميةضدقوىالعدوانوالإمبريالية*.* إنالصلةبينمصالحالإمبرياليةوالوجودالمتواصللإسرائيلستجعلحربناضدالأخيرةحرباًبشكلأساسيضدالإمبريالية*“.-* ليلىخالد*.*

إن الاقتباسين الواردين أعلاه من أوائل السبعينات من غسان كنفاني وليلى خالد يضعان الإطار الإيديولوجي للصلة بين حركة التحرر الفلسطينية، والحركات الثورية في أميركا اللاتينية و صراعات أخرى عالم ثالثية مضادة للإمبريالية. إن كنفاني، الثوري والروائي الفلسطيني والقائد في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والذي اغتالته وكالة الاستخبارات الوطنية الإسرائيلية في ١٩٧٢، شدد على الأهمية الدولية للصراع الفلسطيني، ووضع القضية الفلسطينية في قلب جميع الصراعات ضد الاستغلال والظلم. أما خالد فهي ثورية فلسطينية، انضمت إلى الحركة القومية العربية، وفيما بعد إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكانت أول امرأة تخطف طائرة، وشددت على تقاطع الصراعين ضد الصهيونية والإمبريالية.

ورغم أنه كانت هناك تفرعات مهمة في سياقيهما، فإن المعاداة للإمبريالية شكلت عقدة وصل بين الصراعين الثوريين الفلسطيني والأميركي اللاتيني في السبعينيات. ولقد جسد هذه الصلات ثوريون مثل أنطوان داود وباتريك أرغويو، اللذين انخرطا في الوقت نفسه في الصراع داخل الحركات الثورية الفلسطينية والأميركية اللاتينية. ولد أنطوان داود في ١٩٠٩ في بوغوتا، كولومبيا لأسرة عربية من بيت لحم، وأدخل في قسم وُضع له عنوان ”سجل الخالدين“ على موقع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على الإنترنت. انتقل داود إلى فلسطين من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٨. وانخرط في المقاومة من خلال تزويد المتمردين الفلسطينيين بالمعلومات التي كان يحصل عليها من خلال عمله في قوة الشرطة الاستعمارية البريطانية وفيما بعد في القنصلية الأميركية. وتتوجت أنشطة داود في المقاومة في تفجير بناء الوكالة اليهودية في القدس، وهي الهيئة التنفيذية للحركة الصهيونية العالمية، التي لعبت دوراً رئيسياً في استعمار فلسطين من خلال إحضار المستوطنين اليهود والسيطرة على الأراضي الفلسطينية. وبعد النكبة حين تم تدمير ٥٠٠ قرية فلسطينية وجرد تقريباً سبعمائة ألف فلسطيني من أملاكهم وطردتهم القوات الصهيونية أثناء حرب ١٩٤٨ انتقل داود إلى القاهرة. وفي ١٩٥٠ عاد إلى بوغوتا. ومن هناك، انتقل إلى غواتيمالا كي ينضم إلى فيديل كاسترو وتشي غيفارا للتحضير للمجموعة الأولى من الثوريين للذهاب إلى كوبا، حيث انتقل حالاً معهم. وانتقل داود مع غيفارا إلى بوليفيا حيث تدرب على حرب العصابات. ولدى عودته إلى العالم العربي في منتصف الستينيات وبعد بدء الثورة الفلسطينية، انضم داود إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وتوفي في ١٩٦٩ في الكويت. ويجسد تاريخ حياة وصراعات أنطون داود التشابك بين الصراعين في أميركا اللاتينية وفلسطين.

عكس ثوريون آخرون أيضاً هذه التشابكات، مثل شفيق جورج هاندال، والذي كان عضواً بمرتبة عالية في الحزب الشيوعي في السلفادور. ومثل والد داود، هاجر والد هاندال من بيت لحم إلى السلفادور في ١٩٢١. وسافر هاندال إلى بيروت للعمل مع فصائل منظمة التحرير الفلسطينية في أوائل الثمانينات.

في غضون ذلك، كان باتريك أرغوييو، عضواً في الجبهة الساندينية. وُلد في سان فرنسيسكو بكاليفورنيا لأب نيكاراغوي وأم أميركية شمالية. وتتحدث قصته عن عمق الصراع المشترك الأميركي اللاتيني الفلسطيني. وشارك أرغوييو في اختطاف طائرة تابعة لشركة العال الإسرائيلية في أيلول ١٩٧٠ مع ليلى خالد، حيث أخذوا أعضاء الجيش الإسرائيلي الأربعين كما زُعم كرهائن كي يلفتوا الانتباه العالمي إلى القضية الفلسطينية. واستخدموا الرهائن ”كأسرى حرب“ للضغط من أجل إطلاق سراح معتقلين عرب وفلسطينيين.

في مذكراتها لعام ١٩٧١، والتي نشرت بعنوان شعبي سيحيا، تحدثت ليلى خالد عن شريكها في اختطاف الطائرة أرغوييو:

بانضمامك إلى صراعنا من أجل الكرامة والوطن، منحتنا درساً في التضامن الدولي والأخوة دعم عقد التعاطف بين شعب أميركا اللاتينية والشعب الفلسطيني. كتبتَ التاريخ ببذل دمك من أجل الآخرين، وحّدْتَ قارتين بروحك الشمولية، وصعدت إلى مملكة آلهة الأولمب بالتزامك الملهم للحياة. أنت تجمع في شخصيتك لافاييت وبايرون ونورمان بيثيون وتشي غيفارا، بارتيك أرغوييو، شهيد من أجل حرية فلسطين. أنت لست ميتاً، أنت حي. ستحيا إلى الأبد. أنت القديس الراعي لفلسطين.

يوضح انخراط أرغوييو وآخرون في الصراع الفلسطيني أن فلسطين ترمز بالنسبة للبعض، إلى صراع جميع المضطهدين في أنحاء العالم. ولفهم هذا الصراع، يجب أن نعود إلى تاريخ المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني.

الثورة الفلسطينية كصراع تحرر ضد الاستعمار والإمبريالية

في ١٨٩٧ تبنى المؤتمر الصهيوني الأول برنامج بازل، والذي هدف إلى إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين. وسهّلتْ السلطة الاستعمارية التي حكمت فلسطين تحت الانتداب من ١٩٢٣ إلى ١٩٤٨ هذه المحاولة من خلال وعد بلفور، وهو بيان صدر في تشرين الثاني ١٩١٧ أعلن الدعم البريطاني لتأسيس ”وطن قومي لليهود“ في فلسطين.

أدى هذا بالتالي إلى استيطان استعماري لليهود وتهجير السكان الأصليين الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون هناك. ودعم البريطانيون المشروع الصهيوني كي يؤسس كياناً استعمارياً في قلب العالم العربي لحماية مصالحه الاقتصادية وتوسيع سيطرته على المنطقة متجاهلاً مصالح وتطلعات الشعب العربي.

بتأسيسها لنفسها كجزء من المشروع الاستعماري الأوربي، قامت الحركة الصهيونية بتسهيل من السلطات الاستعمارية البريطانية بالاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، وإفراغ القرى والبلدات الفلسطينية من سكانها، وطرد أكثر من سبعمائة ألف مواطن فلسطيني صاروا لاجئين. وتأسست إسرائيل رسمياً كتجسيد مادي للمشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في ١٩٤٨. إن المشروع الاستيطاني الصهيوني مختلف عن المشاريع الاستعمارية التي تهدف إلى استغلال المواد الأولية وقوة عمالة السكان المحليين المستعمرين، ويهدف إلى الاستيلاء على الأراضي وطرد سكانها كي تحل محلهم مجموعة جديدة من السكان. وتواصلَ مشروع الاستيطان والاستعمار في التوسع مع احتلال الأجزاء المتبقية من فلسطين في ١٩٦٧ بعد الحرب العربية - الإسرائيلية، بالإضافة إلى الاحتلال الجديد للأراضي السورية والمصرية. وقاد المنطق نفسه القيادة الصهيونية للاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، واستئصال الوجود الفلسطيني، وبناء مستوطنات يهودية في الأراضي الفلسطينية بعد اتفاق سلام أوسلو، الموقع في ١٩٩٣ بين منظمة التحرير وإسرائيل.

قاوم الفلسطينيون المشروع الاستعماري الاستيطاني منذ بدايته. وعارضت ثورة الفلاحين الفلسطينيين في ١٩٣٦- ١٩٣٩، مثلاً، كلاً من الحكم الاستعماري البريطاني والمشروع الاستيطاني الصهيوني. وبعد النكبة في ١٩٤٨ تواصلت المقاومة الفلسطينية وتتوجت في منتصف الستينيات بتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية التي تألفت من عدة منظمات فلسطينية بإيديولوجيات مختلفة. لكن الجميع تبنوا الصراع المسلح كطريقة لتحرير فلسطين وعودة اللاجئين إلى ديارهم.

ومن منتصف الستنيات إلى منتصف الثمانينات وسمت ثقافة سياسية ثورية وفكر وممارسة ثورية المقاومة الفلسطينية. وكانت لها صلات قوية مع حركات تحرر مضادة للاستعمار والإمبريالية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وشهدت الحقبة انخراط الفلسطينيين والعرب والحلفاء الدوليين في الحركات الشعبية والصراعات المسلحة التي أطلقتها الفصائل المختلفة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان للناشطين اليساريين الفلسطينيين رؤية واضحة حول من شكل أعداء وأصدقاء الشعب الفلسطيني. وأدركت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كما أعلنت في ١٩٧١ في مجلة الهدف، أن ”معسكر الأعداء ليس إسرائيل فحسب: إنه إسرائيل والحركة الصهيونية والإمبريالية العالمية والرجعية العربية… إن الحركة الصهيونية العالمية لها علاقات ومصالح متشابكة مع الإمبريالية العالمية، وتستفيد الثانية من الكيان الصهيوني“.

الثورة الكوبية، الساندينية والتوباماروس: الترابط بين الصراعات الثورية:

"في الستينات، استمدت الحركات الثورية اليسارية الصلات الإيديولوجية من خلال معارضتها للمشاريع الغربية والأميركية الإمبريالية بما فيه بين أميركا اللاتينية وفلسطين. وكانت الثورة الكوبية نقطة إلهام للثورة الفلسطينية. وكما قال القائد السابق للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تشرين الثاني\نوفمبر ٢٠١٧:

بزغت المنظمات اليسارية الفلسطينية في فترة تاريخية اتسمت بانتصارالثورة في كوبا. وكثورة بازغة كانت الثورة الفلسطينية بحاجة إلى دعم إيديولوجي ومادي ودعم بالسلاح. كانت بحاجة إلى تجربة الحركات الثورية كي تتمكن من بناء تجربتها الخاصة. ولقد لبى نظام الثورة الكوبية هذه الاحتياجات“.

إن دعم نظام الثورة الكوبية للصراعات الثورية موثق جيداً في الأدبيات الأكاديمية. فالكتاب الصادر في ٢٠١٧ بعنوان العنفالثوريواليسارالجديد*:* منظوراتعابرةللقومية، والذي حرره كل من ألبرتو ألفاريز وإدواردو تريستان، يشرح الطبيعة العابرة للقومية للعنف الثوري اليساري، ويركز على الطرق التي انتشرت بها الإيديولوجيات وعُبئت الأفكار بين المنظمات الثورية في أميركا اللاتينية وأوربا والولايات المتحدة. ويوردان الثورة الكوبية ودعمها المادي لمنظمات ثورية أخرى بزغت في الستينيات والسبعينيات كعامل جوهري في هذه السيرورات.

ويشير المؤرخ روبرتو بوزانكو في ٢٠١٧ إلى مؤتمر القارات الثلاث الذي رعته كوبا في هافانا كلحظة مهمة في القتال ضد الإمبراطوريات العالمية بنت روابط بين الحركات والصراعات المضادة للإمبريالية عبر العالم الثالث، سواء الاشتراكية أو القومية. وفي المؤتمر، صارت القضية الفلسطينية جزءاً رئيسياً من الأجندة السياسية لليسار الأميركي اللاتيني كله.

كانت كوبا أول دولة اعترفت بحركة التحرر الفلسطينية لدى تأسيسها في ١٩٦٤ ودعمت المنظمات اليسارية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين بالمساعدة اللوجستية والمهنية. وفي ١٩٧٤، استضاف فيديل كاسترو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في زيارة مغطاة دولياً إلى كوبا، ثم افتتح سفارة فلسطينية في كوبا.

فُتن الفلسطينيون بالثورة الكوبية جزئياً بسبب نجاحها السريع. وبحسب القائد السابق للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إن الثورة الكوبية ”نجحت في عامين، ودعمتها شخصية فيديل كاسترو الكاريزمية ورفاقه. وكانت حرب عصابات بدأت في الغابات والمناطق الريفية وانتقلت إلى المدينة، وهي ثورة اعتمدت على الفلاحين. وقادها الثوريون الديموقراطيون الذين تحولوا إلى ماركسيين أثناء الممارسة الثورية“. وتطورت العلاقة مع كوبا في أواخر الستينيات، كما قال، وشملت التدريب عسكري والأكاديمي. ”دُربت كوادر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على حرب العصابات، وشارك العشرات في دورات عسكرية وإيديولوجية تراوحت بين ستة إلى تسعة أشهر وسنة. وكانت هناك منح أكاديمية للشباب وتلقوا أحياناً مساعدات مالية“، كما قال. ”وزار رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جورج حبش كوبا عدة مرات في الثمانينيات. وكانت هناك قواسم مشتركة بين حبش وكاسترو. وكان الاثنان برجوازيين انقلبا إلى ثوريين“. وترجمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أيضاً عدة نصوص حول الثورة الكوبية، قرئت على نطاق واسع ودرسها كادر المنظمة.

بالإضافة إلى الثورة الكوبية، كان لمنظمة التحرير الفلسطينية علاقات مع حركة جبهة الساندينية النيكاراغوية. ودرس الباحث بروس هوفمان الصلات بين منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الساندينية (وخاصة مع الجبهة الشعبية) في تقرير راند لعام ١٩٨٨،“منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في أميركا الوسطى: البعد الجيوبوليتيكي“. قال كانت إحدى نتائج مؤتمر القارات الثلاث في هافانا اتفاقية بين منظمة التحرير الفلسطينية ورجال حرب العصابات الساندينستاس الموقعة في أواخر الستينيات ومهدت الطريق لتدريب أعضاءالجبهة الساندينية في قواعد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان.

تعمقت العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة الساندينية بعد انتصار هذه الجبهة في ١٩٧٩، وبعده بدأ الثوريون الفلسطينيون يتدربون في نيكاراغوا. يحلل هوفمان البعد الجيوبوليتيكي للعلاقات بين منظمة التحرير والجبهة الساندينية في سياق علاقات إسرائيل مع نظام سوموزا في نيكاراغوا ودول أميركية لاتينية أخرى كهوندوراس وغواتيمالا والسلفادور وكوستا ريكا. فسّر دعم ومساعدة منظمة التحرير للجبهة الساندينية كرد على دعم إسرائيل وبيعها الأسلحة لجيران نيكاراغوا.

نشأت علاقات أخرى أقل توثيقاً بين المنظمات اليسارية الفلسطينية والمنظمات الثورية الأميركية اللاتينية كحركة التحرر القومي التوباماروس في الأرغواي. وبحسب قائد الجبهة الشعبية السابق الذي أجريتُ معه مقابلة، درستْ المنظمات اليسارية الفلسطينية بعناية هذه التجارب. ”طبعت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منشورات وأطلعت أعضاءها على تجارب الحركات الثورية كالتوباماروس والتي كانت حركة مدينية خصوصاً في مونتيفيديو. واستفاد كادر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من تجربة التوباماروس، وخاصة من تكتيكاتها بخصوص السرية والأنشطة السرية“، كما قال.

استند الافتتان الفلسطيني بالحركات الثورية الأميركية اللاتينية إلى فرضية أن الجنوب العالمي يمتلك القدرة على القتال والانتصار، ويمكن أن تنجح حرب العصابات رغم الحدود والضغوط. قال القائد السابق للجبهة الشعبية:

درسنا بعمق تجارب الحركات الثورية الأميركية اللاتينية على مستويين: المستوى الإيديولوجي، ومستوى الخصوصيات التفصيلية للتجربة في سياقها. كنا مسحورين بالطريقة الغيفارية وأثرت في تفكيرنا. شكلت إلهاماً، لكننا كنا واعين لحدود إمكانية تطبيقها في السياق الفلسطيني. إن الطبوغرافيا الفلسطينية محدودة، كما أنه ليس لدينا جبال.

يوحي هذا بأن أنشطة المنظمات اليسارية الفلسطينية استمدت الإلهام الإيديولوجي من الحركات الثورية الأميركية اللاتينية، لكنها حللت خصوصيات الحالة الفلسطينية وقيمت أي ممارسات ثورية تناسب السياق الفلسطيني وأيها أقل قابلية للتطبيق.

نصوص أميركية لاتينية تتسرب عبر جدران السجن الاستعماري

من جبال البيرو والسلفادور إلى فلسطين، خلفية أخرى شهدت انتشاراً واسعاً للنصوص الثورية الأميركية اللاتينية كانت خلفية السجن. فبعد الاحتلال الإسرائيلي للأجزاء المتبقية من فلسطين في ١٩٦٧ صار السجن الجماعي أداة مضادة للتمرد لردع الصراع الفلسطيني. ونظم السجناء السياسيون الفلسطينيون أنفسهم من خلال صراعهم ضد سلطات السجن الاستعمارية، مشكلين ما صار حركة السجناء الفلسطينيين. واجه أولئك السجناء سلطات السجن محولين السجون الإسرائيلية إلى قلاع ثورية وفضاءات مقاومة وجامعات شعبية. ومن داخل جدران السجون وأوضاعهم المادية القاسية، طورت جماعة السجناء الفلسطينيين نظاماً تعليمياً، وبنى تنظيمية، وشبكات اتصال داخل ووراء جدران السجن.

ساهمت النصوص الثورية الأميركية اللاتينية في التربية العقائدية للسجناء الفلسطينيين. وكما قال سجين سابقا أجريتُ معه لقاء:“انخرط السجناء الفلسطينيون في قراءة وفهم وتحليل التجارب الثورية كي يتعلموا دروساً من أجل تجاربهم“. أضاف:

في وجه القمع والاستئصال، انخرط السجناء الفلسطينيون في بناء بناهم التنظيمية وتدعيم جبهتهم الإيديولوجية. واستمدوا الإلهام من الحركات الثورية العالمية بما فيه الحركات الثورية الأميركية اللاتينية، كتجربة التوباماروس. قرأنا تلك التجارب وحفظنا أسماء المواقع والأمكنة. وغالباً ما كان هذا على حساب دراسة التجارب الفلسطينية في الماضي والحاضر.

تطور السجناء ومنظماتهم السياسية ونظموا المناهج التربوية التي تدرس في السجون نفسها، كما شرح سجين آخر. وتضمن منهج الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وحدة بعنوان ”تجارب ثورية“، كما قال لي السجين السابق.

وفي هذه الوحدة كان السجناء يقرأون ويناقشون تجارب ثورية متنوعة بما فيه تلك التي من أميركا اللاتينية. ”إن الهدف من قراءة هذه التجارب مزدوج: التعلم من هذه التجارب ومناقشة إمكانية تطبيقها في السياق الفلسطيني، وأيضاً تعبئة الخيال الثوري للسجناء من خلال معرفة أن الناس في أنحاء العالم منخرطون في صراعات ثورية“، كما أضاف السجين السابق.

قرأ السجناء الفلسطينيون التجارب الثورية من منظور الصراع الفلسطيني ضد الاستعمار. أحد النصوص في المنهاج في أواخر السبعينيات كان مذكرات قائد نقابة المناجم البوليفية دوميتيلا باريوس دي تشونغارا، دعونيأتكلم، والذي تُرجم إلى العربية وانتشر على نطاق واسع داخل وخارج جدران السجن. وكما قال سجين سابق آخر تحدثت إليه:“ في قراءتنا ونقاشنا لشهادة دوميتيلا ركزنا على مبادئها وقوتها. ناقشنا الصراع الطبقي من خلال شهادتها. بالإضافة إلى ذلك، استمدينا الإلهام من صلابتها أثناء الاستجواب، وهذه مسألة مهمة لصراعنا“. كانت قراءة نص دي تشونغارا طريقة لربط النسوية وقضايا المرأة بصراعات تحرر وعدالة اجتماعية واقتصادية أوسع، وراء أطر الليبرالية.

علاقة النصوص الثورية بالسياسة الفلسطينية الحالية

بزغ الصراع الفلسطيني وتحالفاته مع الحركات الثورية المضادة للاستعمار والإمبريالية في تعارض مع المشروع الاستعماري ودوره الإمبريالي الوظيفي. إن توسع المستوطنات الإسرائيلية، واستيلاءها على الأراضي الفلسطينية استمدا القوة من الدعم الأميركي وتواطؤ معظم الأنظمة العربية، وسياسات السلطة الفلسطينية ما بعد أوسلو والتزامها بالتعاون الأمني مع المستعمر.

إن السياسات الفلسطينية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الرسمية في ما بعد أوسلو التي دعمتها وكالات التمويل الأميركية والأوربية، أدخلت السياسة في إطار خطابات حقوق الإنسان وخطابات تنموية نيوليبرالية تجزئ وتستقطب صراعات التحرر. إن الصراع الثوري الفلسطين الذي تتوج في الستينات والسبعينات بالمشاركة في صراع ثوري مسلح عابر للعالم العربي وللقومية حل محله مشروع السلطة الفلسطينية لما بعد أوسلو، والذي فيه صار الفلسطينيون مقيدين بجغرافيا مستعمرة ومجزأة، بحاجة للإنقاذ من قبل ناشطي حقوق الإنسان العالميين والمحليين، ومعتمدين على المساعدات الإنسانية.

إن هيمنة بنى السلطة الاستعمارية والإمبريالية والمستغلة اقتصادياً لم تترك إطاراً مرجعياً لتطوير ذاتيات ومفاهيم ثورية راديكالية في المجتمع الفلسطيني الحديث اليوم. ومن خلال قراءة الشهادات حول أميركا اللاتينية وثورات أخرى إقليمية ودولية كان طلابي قادرين نوعاً ما على العثور على إطار كهذا. ويخدم استحضار الماضي الثوري لحركة التحرر الفلسطينية ورؤاه الواضحة في توسيع الفضاء الخيالي السياسي الفلسطيني وصقل حساسيات وممارسات ثورية. وتمتلك قراءة ومناقشة نصوص ثورية فلسطينية وأميركية لاتينية، على ما يبدو، القدرة على إبداع سياسة ومعتقد ثوري يحدوهما الأمل بأن التحرر ممكن، وهذا اعتقاد هاجع لكنه ليس ميتاً.

*\** ليناميريأستاذمساعدللأنثروبولوجيافيجامعةبيرزيتومهتمةبالحركاتالثوريةوتشكلالموضوعالثوري*.*